

جون مولى أبي ذر

في قلب الصحراء الواسعة، كان "جون" يعيش حياةً ملؤها الحكمة والزهد. لم يكن مجرد خادم للصحابي الجليل "أبي ذر الغفاري"، بل كان تلميذاً نهل من علمه واخلاصه. كان جون يراقب أبا ذر وهو يتحدث عن الحق والعدل، فكبر في قلبه حب الله ورسوله، وأدرك أن قيمة الإنسان لا تُقاس بلونه أو ماله، بل بنقاء سريرته وصدق انتماءه.



بعد رحيل أستاذه أبي ذر، انتقل جون إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ليكون في خدمة أهل البيت الكرام. هناك، وجد جون نفسه بين يدي الإمام الحسن ثم الإمام الحسين عليهما السلام. لم يكن يعامل كغريب، بل كان جزءاً من تلك الدار الطاهرة، يتعلم من أخلاق الإمام الحسين وصبره، ويلمس في تعامله قمة التواضع والمساواة.



عندما حانت اللحظة التاريخية، وقرر الإمام الحسين الخروج لمواجهة الظلم، لم يتردد جون لحظة واحدة. سار مع القافلة من المدينة إلى مكة، ثم في الطريق الطويل نحو كربلاء. كان جون يهتم بالخيول، ويصلح الدروع، ويسهر على راحة القافلة، وقلبه ينبض بالوفاء لرجل يراه منارةً للحق والهدى.



في ليلة عاشوراء، بينما كان الجميع يستعد للقاء المحتوم، كان جون يجلس هادئاً، يشحذ سيفه بعزم. لم يكن يرى في غدٍ نهايةً، بل كان يراه بدايةً لخلود الروح. كان ينظر إلى الإمام الحسين بعين المحب الذي لا يطيق فراق محبوبه، مستعداً للتضحية بكل ما يملك في سبيل المبادئ التي آمن بها.



طلع فجر العاشر من المحرم، واشتد الكرب. تقدم جون نحو الإمام الحسين يطلب الإذن للقتال. لكن الإمام، الذي كان يرحم شيبته ووفاءه، قال له بمرارة: "يا جون، أنت في إذن مني، فإنما تبعتنا طلباً للعافية، فلا تبتلِ بطريقنا". أراد الإمام أن يمنحه فرصة للنجاة بنفسه من الموت الوشيك.



انهمرت دموع جون، وسقط على قدمي الإمام يقبلهما وهو يقول بكلمات تفيض إيماناً: "يا بن رسول الله، أنا في الرخاء ألحس قصاعكم وفي الشدة أخذلكم؟ إن ريحي لنتن وحسبي للئيم ولوني لأسود، فتنفس علي بالجنة ليطيب ريحي ويشرف حسبي ويبيض لوني! لا والله لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم".



أمام هذا الإصرار والصدق، أذن له الإمام الحسين. انطلق جون نحو ساحة المعركة كأنه شاب في مقتبل العمر، لا يبالي بجمع الأعداء. كان يقاتل بشجاعة منقطعة النظير، يدافع عن خيام النساء والأطفال، وعن إمام زمانه، مدركاً أن هذه اللحظات هي التي ستحدد جوهره الحقيقي أمام الله.



وفي وسط القتال، ارتجز جون كلمات سجلها التاريخ بمداد من نور: "كيف يرى الكفار ضرب الأسودِ.. بالسيف ضرباً عن بني محمدِ.. أذبّ عنهم باللسان واليدِ". كانت كلماته صرخة في وجه التمييز والظلم، وتأكيداً على أن الولاء والحب هما ما يرفعان شأن الإنسان في الدنيا والآخرة.



بعد قتال بطولي، سقط جون شهيداً على أرض كربلاء. أسرع الإمام الحسين إليه، وفي مشهد يعجز الوصف عنه، وضع الإمام خده الشريف على خد جون، تماماً كما فعل مع ابنه علي الأكبر. لقد مسح الإمام الفوارق الدنيوية، مبيناً أن هذا الرجل "الخادم" هو في الحقيقة أخ وسيد بوفائه وتقواه.



دعا الإمام الحسين لجون قائلاً: "اللهم بيض وجهه، وطيب ريحه، واحشره مع الأبرار". وتقول الروايات إن رائحة المسك فاحت من جسده بعد شهادته، وظلت تعطر المكان لأيام. رحل جون، لكنه ترك درساً خالداً للأجيال: أن القرب من الله لا يكون إلا بالتقوى، وأن القلوب الصادقة لا تحجبها الألوان ولا الرتب.



النهاية

جون مولى أبي ذر

الطبعة الأولى - ٢٠٢٦م